الجولة الثامنة

— ١ —

ذكرنا من قبل أن من أهم ما حاوله الأستاذ الامام حسن البنا رحمه الله أن يذكر المسلمين بمجموعة الحقوق التى يقتضيها سير الحركة الاسلامية المعاصرة وأن يوجد الصيغة التى تؤدى فيها هذه الحقوق .

فهناك حق الدعوة والأفضلية فيه ، فالأفضلية الأولى فى الدعوة للعقيدة وتصحيحها ثم للعبادة من صلاة الى زكاة ..

وهناك حق العلم وهو يقتضى مناقشات وتحقيقات وتبيانا للخطأ من الصواب وللحق من الباطل .

وهناك حق التربية وهو يقتضى ملاحظة لاستعداد المسلم ولسقفه الأعلى .

وهناك حق المعركة مع الكفر والكافرين وهذا يقتضى أن يقف أهل الاسلام جميعا صفا واحدا .

ولقد حاول الأستاذ البنا من خلال الصيغ التى طرحها والتربية التى أرادها أن يوجد صفا واحدا للمسلمين ، يستطيع كل مسلم داخله أن يقول لأخيه بمنطق العلم هذا خطأ وهذا صواب دون أن يؤثر ذلك على وحدة الصف . وأن يعرف كل انسان فى الصف فقه الدعوة فى عصر كثير الشرور كثير الكفر .

وسلاح ذلك العلم والوعى ووضع الأمور فى مواضعها ، وهدفنا فى هذه الرسالة أن نخدم فى هذا الموضوع لصالح الحق وعلى ضوء العلم .

* * *

— ٢ —

هناك شىء اسمه حق العلم وشىء اسمه حق الدعوة وشىء اسمه حق التربية وشىء اسمه حق المعركة ، ولا يحسن كثير من الناس أن

يميزوا بين الموقف الذى يقتضيه حق الدعوة وبين الموقف الذى يقتضيه حق التربية الى غير ذلك • وكثيرون من الناس لا يحسنون أن يتصرفوا التصرف المناسب الذى يقتضيه حق هذا أو حق هذا فى محله • وكثيرون يطالبونك أن تفطن الى حق الدعوة دائما ناسين حق العلم ، أو أن تفطن الى حق العلم ناسين حق التربية والدعوة • وهذا باب واسع ودقيق ولا يوفق الى الكمال فيه الا الموفقون •

ان حق العلم يقتضى منك أن تقرر الحق فى كل شىء ، ولكن حق الدعوة يقتضى منك أن تدعو الى الأصول أولا وتركز عليها ، وحق التربية يقتضى منك مراعاة استعداد المربى وملاحظة وضعه النفسى ، ومن ثم كانت الحكمة معنى زائدا على العلم قال تعالى : « **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** »(١) •

فأن تعلم الأحكام كلها هذا شىء ولكن أن تربى الناس على الأحكام والالتزام بها هذا شىء آخر • وأن تعظ الناس بالكلمة المناسبة التى لا تحدث ردود فعل والتى تكون بالقدر الذى يحتاجه السامع هذا شىء آخر •

* * *

— ٣ —

ان الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أرسل معاذا الى اليمن أمره أن يدعوهم الى : لا اله الا الله فان هم أجابوا الى ذلك فانه يدعوهم الى الصلاة • وهكذا •• ان هذا التدرج هو حق الدعوة ، والرسول صلى الله عليه وسلم أخذ العهد على بعض أصحابه ألا يسألوا الناس شيئا فكان الواحد منهم يسقط سوطه من يده وهو راكب فينزل ويأخذه ولا يسأل الناس أن يناولوه اياه ولكنه يطالب أصحابه كلهم بهذا الخلق ، فهذا حق التربية أن نلاحظ استعدادات الناس ، وخلف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب والسنة فيهما تبيان كل شىء وعلى العلماء أن يبينوا فاذا أدرك المسلم هذه المعانى كلها أدرك ماذا نعنى بحق العلم ، وماذا نعنى بحق الدعوة ، وماذا نعنى بحق التربية •

* * *

---

(١) البقرة : ٢٦٩ •

وكثيرون من الناس تسرى عليهم أغلاط فى هذا الشأن اذ يتصورون أن حق الدعوة أو حق التربية يلغى حق العلم ، فاذا أراد الانسان أن يفصل فى شأن من الشئون يقتضيه حق العلم قالوا له ان هذا لا يتفق مع حق الدعوة ومقتضياتها ، وقد يقتضى حق التربية التوسع فى دائرة الفتوى فيفتى الفقيه بغير مذهبه ونجد فى هذه الحالة نكيرا عليه من أصحاب الآفاق القريبة النظر • نقول هذا الكلام ليعرف القارىء أننا فى هذه الرسالة نريد أن نؤدى حق العلم وحق الدعوة وحق التربية بآن واحد . فاذا وجد تفصيلا لا يوافق عليه بعض الناس فاننا نرجو ألا يؤاخذنا على ذلك اذ أن حق العلم يقتضيه ، وحق العلم فى الكثير من الأحوال يقتضيه حق التربية وحق الدعوة بآن واحد اذ لا تتضح قضية الدعوة وقضية التربية الا اذا اتضحت كل الأمور على ضوء العلم واذا لم تفهم المسألة على هذه الشاكلة فان الاسلام كله يضيع ومن ثم فاننا فى هذه الجولة نحب أن نضع بعض الأمور فى مواضعها ولو كانت جارحة فنقـــول :

يحارب بعضهم دراسة الفقه حربا عنيفة ، ويعتبر مجرد التفكير بتدريس الفقه الاسلامى على مذهب واحد أو على المذاهب الأربعة علامة خطأ ، وقد وصل الأمر ببعض الناس الى أن يعتبروا المذهبية فى الفقه ضلالا أو شبه ضلال • ويحارب بعضهم دراسة كتب العقـــائد الاسلامية حربا شعواء سواء أكانت مختصرة أو مطولة ويعتبر أن هذه الطريقة فى التأليف كانت لزمن وكان أهل ذلك الزمن مخطئين فكيف تصلح لعصرنا ؟

ويحارب بعضهم كتب التصوف واسم التصوف كائنا ما كان ويعتبر مجرد الدراسة لهذه الكتب حتى للبصير بالخطأ والصواب خطأ لا ينبغى الوقوع فيه •

ونحن نعتبر هؤلاء جميعا مخطئين واليك البيان :

(أ)

ولنبدأ الكلام من نقطة الصفر ، لقد رأينا من قبل أنه ما من علم من العلوم التى احتاج الناس اليها لفهم الشريعة أو تبينت لهم ضرورة لخدمتها الا تطور وحرر ونقح وألف وتوسع فيه على مدى العصور كعلم

البلاغة والنحو وفقه اللغة وعلم الحديث وعلوم التفسير وعلوم القراءات ، فكيف لا يوجد علم الفقه وعلم التوحيد وعلم التصوف وعلم أصول الفقـــه أى علم قواعد استنباط الأحكام الشرعية ؟ أمن المعقول أن فى ذلك كله ؟ أمن المعقول أن يتطور علم النحو ولا يتطور علم أصـــول الفقـــه أى علم قواعد استنباط الأحكام الشرعية ؟ أمن المعقول أن يوجد ويتطور علم البلاغة ولا يوجد ويتطور علم الفقـــه وهو الذى يمثل الحاجة اليومية للمسلم ؟ أمن المعقول وأئمة الضلالة بدأوا يطرحون أفكارهم الضالة منذ عصر الخلفاء الراشدين ثم لا يتصدى لذلك علماء الأمة وبالتالى ألا يوجد علم التوحيد ؟ أمن المعقول ألا يتطور هذا العلم رغم كل ما مر على هذه الأمة ورغم كل ما طرح على أرضها من أفكار ؟ أمن المعقول ألا يوجد علم التصوف وألا يتطور وهو علم الأخـــلاق الاسلامية وعلم التربية النفســـية عند المسلمين ؟ ترى لو أن قائلا قال اليوم : ان علينا أن نترك علم النحو بحجة أن علم النحو يحول دون دراسة اللغة العربية فى نصوصها الأولى فماذا نقول له ؟ ألا نقول له ان هذا ضرورى وهذا ضرورى ولهذا محله ولهذا محله ؟ .

لقد تفرع عن الكتاب والسنة علوم كثيرة كلها ضرورية ، وكلها اقتضتها طبيعة سير هذه الأمة التاريخى ، والتحقيق طيب وللاختصاص فى هذه الشريعة محله ودوره فى الاتقان والاحكام .

* * *

ان حفظ النصوص علم ، ومعرفة قواعد الاستنباط علم . وقد يشترك الملايين فى شىء من هذا ، ولكن ملكة الاستنباط والقدرة عليه معنى زائد على العلم وهبة خاصة من الله ، للجهد البشرى فيها نصيب ، وقد أشارت النصوص الى مثل هذا قال عليه السلام : « فرب مبلغ أوعى من سامع » وقال تعـــالى : « **لعلمه الذين يستنبطونه منهم ..** »(١) ذاك فى فقه النصوص وهذا فى فقه المواقف اليومية ثم تأتى بعد ذلك القدرة على تطبيق النصوص على المسائل المستجدة ومعرفة النصوص التى تدخل تحتها هذه المسائل .

ونجد فى تاريخنا الكثير الموضح لهذه المعانى . نجد الشافعى مثلا يستخرج من مثل حديث « يا أبا عمير ما فعل النغير » أحكام ما يزيد

---

(١) النساء : ٨٣ .

على ثلاثين مسألة حياتية وزاد بعضهم على ذلك حتى أوصلها الى الستين ونجد المحدث يحدث الفقيه بالحديث ثم يأتى يسأله عن حكم مسألة فيجيبه فيسأله من أين أخذ حكمها فيقول من الحديث الذى حدثتنيه البارحة ، وأمثال ذلك كثير ومن ثم كان بين الصحابة العالم والأعلم ، والمرجع فى بعض القضايا ، فالأعلم بالفرائض زيد ، والأعلم بالقرآن أبى ، والأعلم فى أحكام المـال عمر ، ولمـا سئل على رضى الله عنه عما اذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خصهم بشىء من العلم نفى ذلك الا أن يكون فهما فى كتاب الله يؤتيه الله من يشاء من عباده وبعض أحكام مكتوبة فى صحيفة أشار اليها الامام على رضى الله عنه .

ان هناك أئمة أجمعت الأمة على أنهم فى الذروة من ملكة الاستنباط ، وقد سلمت الأمة لهم بذلك . ومن قواعد علم الجرح والتعديل أن هؤلاء الأئمة تجاوزوا القنطرة وما قيل فيهم من جرح متعصب أو حسد معاصر أو رأى ضيق أفق فذلك لا يجرح بهم ولا يؤثر على الثقة فيهم ولا يطعن فى ميزاتهم . أما التعصب لهم أو لمذاهبهم فنقول فيه :

التعصب المذهبى ان كان كأثر عن قناعة مطلقة فى قضية بأنها الحق وبالتالى أن يتمسك بها صاحبها قولا وعملا ويدافع عنها بمنطق الحق والعدل لا بمنطق الهوى ، وبمنطق الاخلاص لا بدافع دنيوى ، وبروح الاخوة الاسلامية لا بروح الفرقة الكافرة ، فذلك لا حرج فيه بل ذلك الذى عليه الصحابة ولكن أن يضيق الانسان واسعا بأن يسفه من ليس على رأيه ويضللهم ويجهلهم فى قضية للاجتهاد فيها محل ، فذلك الخطأ كل الخطأ فان الشافعى يقـول : « أجمع العلماء على أن الله لا يعذب فيما اختلف فيه العلماء » . والتعصب للمذهب كأثر من آثار الثقة بعلمائه وقواعده فى الاستنباط وكأثر من آثار الثقة بهذه الأمة التى أجمعت خلال العصور على احترام المذاهب الأربعة واحترام أئمتها هذا التعصب الذى لا يرافقه كراهية لمذهب آخر ولا سوء أدب معه بل الاحترام والتقدير ، فذلك لا حرج فيه وأن يأخذ الانسان بوجهة نظر غير مذهبه كأثر من آثار تحقيقه هو أو تحقيق من يثق به بأن القول الأقوى مع غير مذهبه فهذا كذلك لا حرج فيه واذا رغب العالم البصير بوضع النصوص مواضعها أن يأخذ الفتوى والعمل من النصوص مباشرة فذلك كذلك لا حرج فيه .

والتدرج الذى دل عليه الأستاذ البنا مسلمى عصرنا فى الدراسة الفقهية هو أن يبدأ الانسان بدراسة الفقه على أصول مذهب ، ثم يحاول التعرف على أدلة امامه ، ثم يحاول الارتقـــاء الى أن يكون من أصحاب النظر بالنصوص ، والوقوف ضمن حدود هو الذى لا ينبغى تجاوزه . وهو الذى يزل فيه الكثير فلا يعرفون أن يضعوا الأمور مواضعها ، وما أجمل أن يكون الانسان محبا للحق فلا تدفعه عصبية لحق أن يرفض حقا آخر .

* * *

هذا كله نقوله ونقول معه :

ان علينا أن نحذر استغلال البداية الصحيحة للوصول الى نهايات خاطئة كاستغلال الخوارج فكرة لا حكم الا لله ثم البناء عليها ما لا يتفق معهـــا . وكاستغلال طوائف الباطنية التى تدعى التشيع لآل البيت فكرة حب آل البيت ثم البناء عليها ما يهدم الاسلام كله وكاستغلال فكرة ضرورة التحقيق لنسف المذاهب الفقهية .

أن نحقق بعض المسائل أو أن نحقق كل المسائل اذا كنا نستطيع التحقيق ، هذا شىء طيب ولكن أن يدعى أحد لنفسه مقام التحقيق المطلق وينكره على غيره فهذا خطأ ، ثم أن يحقق الانسان فهذا شأنه ولكن أن يدعو الأمة الى نبذ تحقيق أهل التحقيق فهذا خطأ .

وكما أن علينا أن نحذر استغلال فكرة البداية الصحيحة والبناء الخاطىء عليها فى اطار الأحكام العملية أو الاعتقاد ، فعلينا أن نحذر كذلك استغلال هذه الفكرة فى الاطار السياسى والاجتماعى كاستغلال بعضهم فكرة أن الاسلام ينصر الفقراء وينصفهم ثم يحاولون تحت هذا العنوان أن يخضعوا الاسلام ومفاهيمه لتصورات اقتصادية كافرة .

* * *

يوجد من يقول : ان أئمة الاجتهاد على الرأس والعين ولكنا لا نقبلهم أوصياء على دين الله . ولا أدرى ماذا يعنى بكلمة الوصاية سوى أنه يريد أن يظهر عدم قبوله لفهوم هؤلاء على أنه حق مطلق . الا أنه من خـــلال الحـــوار مع هؤلاء يتبين أنهم فى الحقيقة لا يفعلون سوى أنهم ينقلون الثقة ممن يستأهلها ويعطونها لمن لا يستأهلها وهذا خطير ،

ومع هذا فالشأن شأنهم . ولكن التشكيك بفقه المذاهب يعنى أن يمشى الناس على أهواء أنفسهم فى القضايا المشتبهة لأن أحدا ما ليس قادرا فى عصرنا أن يجيب على عشرات آلاف المسائل التى استجدت خلال العصور .

انى أتحدى كل من يرفض المذهبية والتفقه عليها ، أن يستطيع أن يجيب على آلاف الأسئلة من خلال دراسته لنصوص الكتاب والسنة فقط دون الرجوع الى مذاهب أهل الاجتهاد لا لأن الكتاب والسنة ناقصان بل لأن الكتاب والسنة وضعا قواعد الاجتهاد للمسائل التى لم يرد بها نص صريح وعلى ضوء هذه القواعد تفهم المسائل المتجددة خلال العصور على امتداد الزمان والمكان وهذا الذى فعله أئمة الاجتهاد وتلاميذهم مستخدمين فى ذلك قلوبا لربها مخلصة وعقولا آفاقها واسعة .

والذى لا يقبل ما قلته فليجرب هذه التجربة : ليحاول من خلال الآيات القليلة الواردة فى علم المواريث ومن خلال نصوص السنة الواردة فى هذا العلم أن يجيب على مجموعة المسائل التى يمكن أن تتصور فى واقع الحياة نفسه ، فاذا عجز فليرجع الى كتاب جامع لعلم الفرائض على مذهب من المذاهب فاذا وجد أن بامكانه الآن أن يجيب ، ثم اذا وجد أنه ما من مسألة فى هذا الكتاب الا ولها دليلها الشرعى ، فليعرف قصور نظره . وما قلناه فى موضوع الفرائض نقوله فى قضايا الطلاق والحج والصلاة والطهارة وغير ذلك من أبواب الفقه . ويقول بعضهم : اننا لا نجد هذه الكتب تذكر الدليل ولذلك نحن نرفضها . ونقول : ان هذا بعد عن الانصاف . فما من مذهب الا وفيه عشرات الكتب التى تذكر المسألة ودليلها ومن ثم نجد المؤلف الواحد فى المذهب الواحد يبلغ عشرات المجلدات ، ولكن للاختصار يؤلف علماء المذهب كتبا عارية عن الدليل اعتمادا منهم على أنه يوجد فى المذهب كتب الدليل . ومن أجل الاختصار . انك تجد الكتاب الذى يحوى عشرات الآلاف من المسائل فى مئتى صفحة فلو أن هذه المسائل ذكر بجانب كل منها دليلها ومناقشة الآخرين فى أدلتهم لبلغ حجم مثل هذا الكتاب ألفى صفحة وعندئذ من يقرؤه ؟ ولأمر ما نرى بعض الناس يناقضون أنفسهم فقد رأيت بعض المؤلفين الذين يتشددون فى الانكار على دراسة شرعية بلا دليلها قد ألف رسالة فى عرض أفعال الصلاة المسنونة بأدلتها ثم بعد فترة صدرت

رسالة مختصرة لهذه الرسالة تشرح أفعال صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا ذكر دليل اعتمادا على أن الأدلة قد ذكرت فى رسالة مفصلة أخرى . وكان هذا خلال سنين ، أليس هذا هو عين ما حدث فى كل مذهب ولكن خـلال عصور متطاولة ؟ وقد طرح بعضهم فكرة وبنوا عليها وهى أن تدوين الحديث والاحاطة به جاء متأخرا عن عصر الأئمة أو عن عصر بعضهم ففات بعضهم الكثير ، ونحن فى هذا العصر نفوقهم علما واحاطة ، اذ اكتمل ما لم يكتمل لهم وهذا خطأ ، اذ أن أحاديث الأحكام محدودة أصلا ولو أنك نظرت فى أى كتاب جامع لأحاديث الأحكام كبلوغ المرام أو المنتقى أو الالمام لما وجدته الا مجلدا صغيرا ، وقسم كبير منه حوله أخذ ورد كثيران . ثم ان المسائل التى تعرضت لها أحاديث الأحكام مسائل مطروحة بقوة اذ أنها يحتاجها كل انسان فى الغالب فهى لا تغيب على المتتبع سواء فى العصر الأول أو فيما بعده ، فكيف تغيب عن كبار الصحابة ومجتهديهم كابن مسعود الذى اليه مرجع مذهب الحنفية فاذا فات حديث مجتهدا من المجتهدين فانه لا يفوته مثله ، ثم لنفرض أن حديثا قد فات اماما فان تلاميذ مدرسته قد اطلعوا على ما استجد جمعه فى الكتب بعد ذلك ، ومن ثم فقد أكملوا صرح مذاهبهم على ضوء ذلك . ومن ثم نجد أن كثيرا مما ذهب اليه امام المذهب قد أفتى أصحابه أو من جاء بعدهم من مدرسته بما يخالفه نجد هذا مثلا فى فقه الحنفية فى أبحاث الأوقاف وغيرها . والدليل على ذلك أنه ما من حديث موجود فى كتب أهل الحديث الا ونجد أن كل مذهب من المذاهب نظر فى الحديث وقال رأيه فيه ، والدليل على ذلك أنه ما من حديث من هذه الأحاديث الموجودة فى كتب السنة الا ونجده فى كتب كل مذهب اما فى معرض اعتماده أو فى معرض مناقشة من اعتمده فاذا كان الأمر كذلك فان الأمر لا كما يصوره هؤلاء .

* * *

فاذا وصل الأمر الى هذا الطور من النقاش تجد بعض الناس يوجهون الكلام توجيهات أخرى :

فهم اما أن يطرحوا بعض المسائل التى ذكرها مذهب من المذاهب مما يتبادر الى الذهن انكاره ويسخروا من المذهب نفسه وينددوا بما ذكر على أنه اجتهاد سخيف .

واما أن يشككوا بأصول مجتهد من المجتهدين واما أن يعرضوا أدلة مسألة ما من المسائل ثم يحاولوا البرهان عليها من السنة الصحيحة وبالتالى فان من خالفها من المجتهدين مخالف للسنة الصحيحة وبالتالى فاتباعه ضـــلال واما أن يطرحوا فكرة ما يترتب على الخلاف من تمزيق لوحدة الأمة الاسلامية واما أن يحاولوا ذكر آيات ويحملوها على غير محملها الصحيح وكل ذلك ينبغى أن يناقش مناقشة هادئة لأن الأمر لابد فيه من التفصيل والدليل وهذه رسالة لا تريد أن تكتفى بالعمومات والكليات •

(أ) انه من العجيب أن تصبح الميزات مثالب • ان الفقيه مهمته الجواب على كل مسألة وقعت أو يمكن أن تقع سواء أكانت حادثة شاذة أم عادية والانسان عندما يقع فى ورطة يفتح كتاب الفقه ليجد جوابها فاذا لم يجد جوابها يعتبر ذلك قصورا • والمفتى عندما يستفتى يبحث فى كتاب الفقه عن الجواب فشىء عـــادى أن تذكر كتب الفقه كل صورة وأن تجيب عليها هذه ميزة وليست عيبا وأن الذين يظنون أن مثل هذا عيب مخطئون خطأ كبيرا • انه لمن الفخر أن نجد كتبنا أجابت على ضوء الشريعة عن كل حادثة مهما كان نوعها ومن ثم تجد فى الكتاب الواحد من كتب الفقه عشرات الآلاف من المسائل منها ما يقع كل يوم ويحتاجه كل انسان ومنها ما يقع فى العصر مرة ويحتاجه واحد من أهل العصر وليس فى ذلك الا الخير على أن المؤلفين لا يبخلون أن يؤلفوا لكل طبقة ما يناسبها وما يسعها •

(ب) أما محاولة التشكيك بالقواعد الأصولية لامام من الأئمة فتلك قضية لم يعد لها محل بعد أن أجمعت الأمة على قبول المذاهب الأربعة أصولا وفروعا ومع ذلك فلا بأس أن نعرض نموذجا أو أكثر يتبين فيه خطأ هذا التشكيك وأنه لا يقوم على أساس :

ـــ مما يثيره بعض الناس مسألة تعارض القياس مع الحديث الصحيح فيدعون أن مذهب الحنفية يقدم القياس على الحديث الصحيح ثم يبدأون فى اثارة زوبعة حول هذا الموضوع وذلك كله خطأ فلا هم فهموا القياس هنا ولا هم أنصفوا مذهب الحنفية فى هذا الموضوع • فالحنفية كغيرهم يقدمون النص على القياس وهم كغيرهم يقولون بأن ما ورد على خلاف القياس فغيره لا يقاس عليه فكيف يعطلون النص بحجة القياس • ان

المسألة ليست كما فهمها هؤلاء • ان المراد بالقياس هنا هو ما نعبر عنه بروح الشريعة وقواعدها العامة المجمع عليها فعندما يأتى نص هو رواية آحاد وان كان صحيحا لكنه يخالف القواعد الشرعية العامة التى انبثقت عن نصوص كثيرة فعندئذ نتوقف فى موضوع هذا النص وندرس على ماذا نحمله لأنه ليس من المعقول أن ننقض قواعد الشريعة برواية انسان قد يهم وقد يخطىء وقد تلتبس عليه الأمور • وهذا الذى قاله الحنفية ليس موقفا خاصا بهم بل هو موقف ورثوه عن الصحابة رضى الله عنهم هذه عائشة رضى الله عنها ذكر عندها ما يقطع الصلاة فذكر الكلب والحمار والمرأة فقالت : « لقد شبهتمونا بالحمر والكلاب والله لقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى وانى على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة فتبدو لى الحاجة فأكره أن أجلس فأوذيه صلى الله عليه وسلم فأنسل من قبل رجليه » هذه رواية صحيحة نرى فيها كيف أنها رضى الله عنها رفضت رواية آحاد عندما خالفت الروح العامة للشريعة والقواعد العامة المعروفة بها • وهذا عمر رضى الله عنه يقول فى الحادثة التى رواها مسلم والترمذى : عندما ادعت فاطمة بنت قيس أنه عليه الصلاة والسلام جعل لها النفقة والسكنى وهى مطلقة ثلاثا يقول عمر : « كيف نترك كتاب ربنا لقول امرأة » وفى رواية مسلم وغيره : « لا نترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لعلها حفظت أو نسيت » •

فموقف الحنفية فى شأن ترك خبر الآحاد اذا عارض القواعد العامة لا يزيد على مثل هذه المواقف من الصحابة ثم ان هذا عندهم ليس على اطلاقه بل له قواعده الدقيقة وضوابطه الكثيرة وهو موقف لا تعطى حقوقه الا لامام مجتهد مستوعب • أما الذين يتصورون أن الحديث الصحيح حكمه حكم المتواتر فى اعطاء اليقين فهذا غلط كبير • هذا الامام مسلم يروى حديث أبى هريرة الذى يرفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن خلق السماء والجبال •• و •• وان هذا كان يوم كذا وهذا كان يوم كذا • وهذا ابن كثير يقـول : هذا الحديث ليس حديثا نبويا بل هذا مما سرى الى أبى هريرة من كعب الأحبار ثم حدث غلط ووهم فنسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم • وهذه الكتب الستة تروى قوله عليه الصلاة والسلام : « ان كان الشؤم فى شىء ففى الدار والمرأة والفرس » وهذه عائشة رضى الله عنها تقول فى رواية صحيحة عنها : « والذى أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه

وسلم ما قالها رسول الله قط انما قال : « كان أهل الجاهلية يتطيرون من ذلك » • فهذه عائشة تتهم رواة الحديث بالوهم والغلط فى النقل وعلى كل حال فموقف الحنفية من الحديث الصحيح اذا عارض قواعد الشريعة وروحها العامة ليس منكرا بل هو موقف تجد عليه الصحابة • فالانكار عليهم انكار على الصحابة أنفسهم •

ـــ مما ينكره أمثال هؤلاء على الحنفية تفريقهم بين رواية الصحابى المجتهد وبين رواية الصحابى غير المجتهد وهو انكار فى غير محله لأن غير المجتهد قد يسرى اليه معنى خاطىء فلأن يخطىء فى حمل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرويه بالمعنى فذلك شىء ممكن عقلا : أخرج الستة ما يلى : قال أبو بكر بن عبد الرحمن سمعت أبا هريرة يفص يقول فى قصصه : من أدركه الفجر جنبا فلا يصم فذكرت ذلك لأبى فأنكره فانطلق وانطلقت معه حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة فنسألهما عن ذلك فكلتاهما قالت : كان النبى صلى الله عليـه وسلم يصبح جنبا من غير حلم ثم يصوم فانطلقنا حتى دخلنا الى مروان فذكر ذلك له عبد الرحمن فقال مروان : عزمت عليك ألا ما ذهبت الى أبى هريرة فرددت عليه ما يقول ، فجئنا أبا هريرة فذكر له عبد الرحمن فقال أبو هريرة : أهما قالتاه لك ؟ قال : نعم • قـال : هما أعلم ثم رد ما كان يقول الى الفضل بن عباس فقال : سمعت ذلك من الفضل ولم أسمعه من النبى صلى الله عليه وسلم فرجع أبو هريرة عما كان يقول •

صحيح ان الرواية لا تذكر أن أبا هريرة عزا رأيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الخطأ فى الحكم وارد وبالتالى يمكن أن يسرى ذلك الى الرواية نفسـها وكم من حديث مرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول علماء الحديث فيه الأصح أنه موقوف على الصحابى •

ومما يثيره بعض الناس ضد الحنفية أن الحنفية يعتمدون الحديث الضعيف اذا وافق القياس أو قواعد الشريعة وليس هذا عيبا بل القياس وحده كاف وكذلك قواعد الشريعة فالحديث الضعيف اذن فى هذا المقام نستأنس به استئناسا ثم ان القاعدة أن الحديث اذا أخذ به امام مجتهد يعتبر أخذه له تقوية له من وجهة نظره ودعك من قول من يقول : ان اماما مجتهدا يمكن أن يكون جاهلا فى الحديث الشريف • ان هذا القول قول انتشر فى بيئات بعيدة عن قلب العالم الاسلامى القديم بعد

مئات السنين من وفاة الأئمة وليس هناك كتاب معروف قبل ذلك ذكر مثل هذا الخطأ الكبير فهى فكرة عامية المصدر غريبة عن التحقيق ولست فى هذا المقام بمبتغ تجريح أحد من المسلمين كائنا من كان بل هو الدفاع السريع من أجل تعميق الثقة بسلف هذه الأمة وما أجمعت عليه فى عصور كثيرة تحقيقا لقوله تعالى : « **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم** »(١) .

(جـ) وأعجب طرق التشكيك أن بعض الناس يأتون الى مسألة خلافية فيقيمون الدليل من السنة الصحيحة على وجهة نظرهم فيها ثم بقفزة واحدة يصلون الى أن من خالف هذا الرأى لا دليل له من السنة وأنه وأنه .. ونحن لا ننكر أن يختلف الناس ولا ننكر على أحد اعتمد قولا تشهد له النصوص وذهب اليه امام مجتهد ولكنا نقول : هذا التشكيك فى غير محله ويكفى لابراز بطلان مثل هذا الطريق أن نضرب مثالا :

ان أبرز قضية على الاطلاق يطرحها هؤلاء فى معرض الوصول الى النتيجة التى يتوخونها هى قضية قراءة الفاتحة وراء الامام اذ يرى فقهاء الحنفية وآخرون غيرهم أن المأموم لا يقرأ وراء الامام حتى الفاتحة ولنر هذا النص الصحيح :

روى مسلم فى صحيحه والامام مالك فى موطئه والترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج ــ ثلاثا ــ غير تمام فقيل لأبى هريرة انا نكون خلف الامام فقال : اقرأ بها فى نفسك .. » لاحظ أن سامع الحديث قال : انا نكون وراء الامام وأن أبا هريرة قال : اقرأ بها فى نفسك مما يدل على أنه كان معروفا مشتهرا أنه لا قراءة للمأموم وراء الامام وأبو هريرة نفسه لم ينكر ذلك بل قال اقرأ بها فى نفسك والقراءة فى النفس تعنى القراءة فى القلب أى استعراض المعانى فى الذهن ولا تعنى قراءة اللسان أليس هذا وحده دليلا للحنفية فيما ذهبوا اليه ولكن الحنفية ليس هذا هو دليلهم الرئيسى بل عندهم الأدلة الكثيرة على ما ذهبوا اليه ولكنه مثال كاف للمنصف للتدليل على أن

---

(١) الحشر : ١٠ .

أئمة الاسلام العظام ما قالوا قولا بلا دليل وأن الأئمة عندما وثقت بهم كانت ثقتها فى محلها •

(د) وأما الذين يحاربون المذهبية بحجة الوحدة الاسلامية فهؤلاء نقول لهم : ان المذهبية نفسها لا تفرق ولكن التطبيق الخاطىء للمذهبية هو الذى يفرق وهذا ليس حله بالالغاء ولكن حله بالتوعية والتعليم والتربية ونقول : ان وحدة الأمة الاسلامية التشريعية موجودة فى حال قيام الحكم الاسلامى لأن الامام أو نائبه يستطيع أن يتبنى قانونا موحدا لقطر أو لمجموعة الأقطار ويفرضه على الأمة ثم ان ما وصلت اليه الأمة من اعتماد المذاهب الأربعة هو أضيق صور التشتت وبدون ذلك يكون عندنا ملايين المذاهب وهو موضوع تحدثت عنه من قبل •

وبانصاف وتجرد وعرض للواقع كما هو نقول :

الملاحظ أن هؤلاء الذين يحملون على مذاهب الأئمة المجتهدين وعلى من يأخذ بها ويفتى على تحقيقات أهلها يسلبون أمثال أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد حق الاجتهاد ويعطونه للعامة ولو أن أحدا استفتى أمثالهم وأمثال أتباعهم فاجتهدوا وأجابوه لم يروا فى ذلك نكرا ويقيمون النكير على من استفتى أبا حنيفة أو الشافعى أو مالكا أو أحمد أو ليس هذا غلطا كبيرا ؟

(هـ) ويذكر بعضهم فى هذا المقام بعض النصوص كدليل على وجوب ترك المذهبية من مثل قوله تعالى : « **فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** »(١) وهذا حمل للنصوص على غير محملها اذ كل من الأئمة المجتهدين يحاول أن يصل الى حكم الله والرسول ويعطيك خلاصة تحقيقه • وفى كتابنا « **جند الله ثقافة وأخلاقا** » مزيد بيان فى هذا الشأن فليراجع •

* * *

على أن المذهبية الفقهية قد طرأت عليها طوارىء وعرضت لها عوارض فأصبحت ــ بدلا من أن تكون لصالح الحياة الاسلامية ــ عامل تعقيد فيها فى بعض الظروف بل أصبحت ذات مضمون مربك لأصحابه وللناس وتكلم أصحابها فى بعض الأحوال كلاما أخرجهم عن الاعتدال

---

(١) النساء : ٥٩ •

الأصيل فى الحياة العملية ومن صور ذلك أنك تجد فقيها اذا طولب بالدليل ثار بدلا من أن يعتذر عن جهله أو يتحدث عن أن الثقة بالتحقيق المذهبى الذى تأكد خلال العصور جعلت عند المتأخرين اهمالا فى دراسة فقه الدليل والمسألة تراجع أدلتها على كل حال ويلفت النظر الى مظنة وجود الدليل ، أو يعد بالجواب فى جلسة أخرى لأنه لا يستحضر الجواب أثناء الكلام .

ومن صور ذلك أنك تجد الانسان لا يعرف شيئا عن فقه شافعى أو حنفى ولكن بحكم أن أباه كان حنفيا فانه لا يقبل الا فتوى حنفية أو لا يتعلم الا فقه الحنفية ولو لم يتيسر له فقيه حنفى ولو بقى جاهلا طوال حياته مع أن العلماء قالوا : ان العامى مذهبه مذهب مفتيه ، وقالوا : ان العامى لا مذهب له والعامى فى هذا المقام اما غير المجتهد واما غير العالم الفقيه البصير فى مذهب وأدلته وأصوله والمقتنع بذلك كله على أنه هو الاجتهاد الحق فأين هذا الآن ؟ انك قد لا تجد فى القطر الواحد الا أفرادا هذا شأنهم فى كل مذهب .

ومن صور ذلك أنك تجد انسانا وصل الى درجة فى العلم تسمح له أن يتأمل ويدرس ويعرف قوة الدليل وبالتالى فهو من خلال دراسة مستفيضة لشىء ما يستطيع أن يدرك ما اذا كان قول امامه ضعيفا أو قويا من حيث الدليل ومع ذلك فانه لا يستبيح حتى فى خاصة نفسه أن يسير على ما ترجح لديه دليله مع أنهم ذكروا كما نقل الطحطاوى فى حاشيته : « لكن قالوا ان الانسان يجوز له العمل بالقول الضعيف فى خاصة نفسه اذا كان له رأى بل بالحديث الثابت صحته وان لم يقل به امامه كما ذكره البيرى فى شرح الأشباه » فاذا كانت المسألة كذلك : حتى القول الضعيف فى المذهب يصح أن يأخذ به من كان له رأى اذا ترجح لديه فمن الخطأ اذن أن تبقى الأمور على مثل الصورة التى ذكرناها .

* * *

على أنه نحب أن يلاحظ المسلم معنى مهما وهو أن الثقة فى المذاهب ليست فى غير محلها اذ أن كل مذهب مر عليه عشرات الآلاف من المحققين والعلماء وفى كل مذهب من المحدثين واللغوين والمفسرين والمتكلمين والأصوليين ما أشبعوا كل مسألة من مسائل المذهب دراسة وتنقيحا وتحقيقا وأقاموا الأدلة من خلال الأصول المعتمدة لديهم على صحة وجهة

نظرهم كما أقاموا الأدلة الكثيرة على صحة وجهة نظر مذهبهم فيما ذهب اليه من قواعد أصولية فى الاستنباط فلا يظنن ظان اذن أن ما ذهب اليه أئمة مذهب فيه شبهة ضلال لو سار فيه الانسان .

على أننا نفرق كذلك بين ما قاله امام مذهب أو مجتهد فى المذهب أو مرجح فى المذهب وبين ما يقوله مؤلف لم يصل الى مثل هذه الرتب فى الاعتماد .

ونحن نرغب أن يتوسع المسلمون فى فقه الدليل الا أنه كذلك نحب أن نذكر أن التسرع فى الأحكام على أن مذهبا ما أخطأ أو ليس له دليل أو دليله ضعيف لا ينبغى أن يكون الا بعد مراجعة القواعد الأصولية للمذهب ورؤية مجموع أدلة المذهب فى مجموع كتبه لأن كثيرين من المؤلفين يقتصرون على بعض أدلة المذهب دون أن يذكروا جميع الأدلة .

كما ننبه على شىء آخر وهو أن كثيرين من الناظرين متى رأوا رواية للبخارى أو مسلم حكموا وقطعوا أن الحق فيها ليس الا ، واحتقروا ما عارضها والأمر ليس كذلك فقد يكون فى أحاديث غير البخارى ومسلم أحاديث أمتن سندا وأقوى صحة من البخارى ومسلم ، وأئمة الحديث ما خرجوا عن كونهم أصحاب رأى ولم يلتزم واحد منهم أن يذكر كل رواية صحيحة ، بل ما ذكره البخارى من الأحاديث الصحيحة فى صحيحه لا يخرج عن كونه واحدا من خمسة عشر من مجموع الأحاديث الصحيحة التى يحفظها هو وهذا يجعلنا نتأنى فى أحكامنا على قوة دليل مذهب أو ضعفه .

ثم ان علينا أن نلاحظ أن لكل مذهب رواياته الحديثية المعتمدة لديه والتى هى عنده فى المكان الأعلى من الثقة ، فالمالكى يرى مجموع روايات مالك من الثقة فى أعلاها والحنفية يرون أن سلسلة أبى حنيفة عن حماد عن ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود أرقى من أى سلسلة أخرى بينما قد تجد بعض المحدثين يضعفها فعلينا ألا ننسى بعض الملابسات التاريخية التى أوجدت خلافا فى التوثيق والتضعيف هذا مع ملاحظة أن علماء الجرح والتعديل وجد منهم من وثق كثيرا من أسانيد خاصة ببعض المذاهب ضعفها غيرهم كما أن علينا أن نضع فى حسابنا أنه لا توجد مدرسة فقهية الا وهى امتداد لاتجاهات فقهية موجودة عند الصحابة كمدرسة

الحنفية فى كونها امتدادا لمدرسة ابن مسعود وهذا يعطى أصحاب المدرسة ثقة خاصة فى فقههم •

ثم ان علينا أن نلاحظ أن علماء الجرح والتعديل استفسروا على أن الأئمة رضوان الله عليهم قد تجاوزوا القنطرة فى قضايا الجرح واذا سرنا وراء هذا الموضوع حتى نهايته فان كثيرا من الروايات الضعيفة ترتفع الى درجة الحسن مباشرة •

ثم اننا اذا لاحظنا أن اعتماد الامام المجتهد لحديث وبناءه عليه يرفع درجة هذا الحديث مباشرة اذ أن الامام اذا لم يصح لديه الحديث فانه لا يعتمده أصلا فلم يعتمده ويبن عليه الا وهو معتمد عنده والأئمة كلهم عدول اجتمع لهم العلم مع الورع مع ملكة الاستنباط ، هذا كله نذكره ليتأنى الدارس والباحث فى الحكم على قوة دليل مذهب وليعذر من استمر على الأخذ بوجهة نظر مذهب •

* * *

وقد وقفنا هذه الوقفة فى الدفاع عن المذاهب لأسباب منها : أن وجود المذاهب الفقهية المتعددة هو وحده يسع الأمة الاسلامية وهو وحده الذى وسعها خلال العصور ومنها : أن الحكومات الاسلامية المتتابعة خلال العصور كان هذا دأبها وهو الذى وسعها ولا يسع أى حكومة اسلامية فى الحاضر والمستقبل الا أن تعتبر مجموع الفقه الاسلامى محل اعتمادها ليسع ذلك احتياجات الزمان والمكان •

ومنها : أن تعقيد الحياة المعاصرة قد زاد لدرجة أن نفس أقوال الأئمة السابقين بمجموعها أصبحت تضيق عن الاحاطة بها فكيف يسعها ما دون ذلك ؟ ومنها : أن التربية الاسلامية اذا لم تكن كذلك فان شقاقات المسلمين فى الحكم وخارج الحكم تكون لا نهاية لها ، والصراعات داخل المجتمع الاسلامى وفى دولته تكون على أشدها بحجة الدليل الأقوى • ولقد قال فقهاء المسلمين بأن للامام أن يختار القول الضعيف ويفرضه على الأمة كقانون ولا شك أن الاختيار والفرض ليس اعتباطيا وانما هو خاضع لمجموعة قواعد أولها : أن لا يكون الاختيار أثرا عن هوى ••

ومنها : أن من خطتنا أن نحيى التراث الفقهى كله لهذه الأمة وأن نطلق باب الفتوى على مصراعيه على ضوء أقوال أئمة المذاهب بحيث

نترك للمناقشات الفقهية ولحرية الاعتماد الشخصية مداها ما دامت هذه أقوال مجموعة أئمة المسلمين دون تدخل من قبل أى سلطة الا فى الحدود التى تضطر فيها الى فرض قانون •

ومنها : أن نقطع الطريق على الدعاوى التى يمكن أن يدعيها كل انسان بأنه هو ذروة التحقيق فنحن لا نمنع أحدا أن يدعى ولكن لن نعطيه وحده فرصة الكلام • ان أخشى ما نخشاه أن يقتتل المسلمون وينقسموا على أنفسهم بسبب اعتماد رأى فقهى • فمن الآن نقول لكل مسلم أن الدولة الاسلامية تعتبر كل الآراء الفقهية ملكا للأمة الاسلامية ، والامام بمجلس شوراه سيعتمد الرأى الذى يراه صالحا لزمن ما أو لمرحلة ما والذين سيشوشون على هذا المبدأ فليشوشوا من الآن ، والحجة قائمة لنا عليهم ولكن أى تشويش فى حالة قيام السلطة على اعتماد أى رأى فقهى من قبل الامام ومجالس الشورى سيقطع الطريق عليه الا اذا بقى فى حدود اعلان وجهة النظر والمناقشة الحرة النزيهة والقضية هذه قضية مبدئية نعتبرها بديهية فى تربيتنا للمسلمين وفى سيرنا • يقول المرشد الشهيد رحمه الله :

« ورأى الامام ونائبه فيما لا نص فيه وفيما يحتمل وجوها عدة وفى المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات » •

ويقول : « والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سببا للتفرق فى الدين ولا يؤدى الى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصـــول الى الحقيقة من غير أن يجر ذلك الى المراء المذموم والتعصب » •

* * *

لقد ترتبت فوائد كثيرة على وجود ما اشتهر بالحركة السلفية من كونها أعادت علم الحديث حيا وحركت علم دليل الأقوال الفقهية بعدما اندثر وأرجعت الأمة الى الصلة القوية بالكتاب والسنة وأعادت الحيوية الى دراســة النصوص وأحدثت نهضة علمية وقامت بسببها أكثر من حركة جهادية أو دولة اسلامية كل ذلك يقال بالنسبة للحركة السلفية ككل ، ونحن حريصون على أن تزداد ايجابيات الحركة السلفية ، ولكنا

فى الوقت نفسه نقول : ان هناك سلبيات قد رافقت أو وجدت عند بعض أبناء هذه الحركة وخاصة فيما له علاقة بالفقه الاسلامى ومذاهبه •

فالملاحظ فيما له علاقة بهذا أن الناس الذين حسبوا على الحركة السلفية أو بعض هؤلاء الناس وهم من أعلام هذه الحركة لم يواتهم التوفيق فيما ذهبوا اليه فى كثير من كلامهم ومن ثم فان كثيرا من الناس لم يروا أن الانتقال من فقه المذاهب الى فقه هؤلاء له مبرراته به ان كثيرا من الأغلاط التى وقع فيها هــؤلاء عمقت عند المذهبيين فكرة المذهبية ورأوا أن فتاوى منضبطة ، احتمال الخطأ فيها ضعيف خير من فتاوى الخطأ فيها متحقق ومن أجل البيان فقط سأنقل مجموعة من الفتاوى أو الآراء التى طرحها رجال يعتبرون أعلاما فى السلفية وأنا لا أنقل هذه المنقول الا لبيان الأسباب التى ترجح الفتوى المنضبطة على الاتجاهات غير المنضبطة فى الفتوى •

* * *

١ ــ من المعلوم أن الأمة لم تزل منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحج اما قارنة أو متمتعة أو مفردة ولا خلاف فى جواز هذا أو هذا أو هذا وانما الخلاف أى هذه أفضل ، فالحنفية يرون القران أفضل ، والحنابلة يرون التمتع لأنه السنة والمالكية يرون الافراد لأنه نمحيص النية للحج أما أن يكون واحد ممن يفعل هذا أو هذا أو هذا آثما فهذا لا يقوله أحد وقد روى لى من أثق بنقله أنه عندما كان حاجا مع أحد أعلام الاتجاه السلفى أنه قال له : انه لا يشك فى اثم الذى لا يحج متمتعا ولكنه متردد فى بطلان حجه ثم أخرج قائل هذا الكلام رسالة تحدث فيها عن بطلان حج غير المتمتع ثم بلغنى أنه تراجع •

٢ ــ من المعلوم أن اجماع المسلمين منعقد على أنه اذا تبين الفجر فى رمضان فقد حرم الطعام وهذا الاجماع مستنده الآية والأحاديث القطعية الدلالة على ذلك ولا يعارضه الا نصوص اما مطعون فيها أو تحتمل أكثر من وجه وبعض أصحاب هذا الاتجاه يفتون بجواز الأكل بعد الفجر مفسدين على المسلمين عبادة الصوم كلها • فأى اجتهاد هذا الاجتهاد ؟

٣ ــ حدثنى من أثق بنقله أن أحد كبار السلفية أفتى بأن الانسان لو دخل الصلاة وهو على غير وضوء ناسيا ثم تذكر أثناء الصلاة أفتى

هذا الرجل بأنه فى هذه الحالة يذهب ويتوضأ ويكمل صلاته أى أن صلاته الأولى جائزة • فهل هذه فتوى ؟

أفترى أن مثل هذه الفهوم هى التى يجب أن ترجع اليها الأمة أو لا ترى أن عذر الأمة واضح فى أن تبقى مستمرة على فتاوى أئمتها الكبار وهى معذورة فى ذلك لأنها ما دامت على فتاوى هؤلاء الأئمة فانها لا تقع فى فتوى ظاهرة الخطأ • اذ أن أبرز مظهر من مظاهر فتاوى الأئمة أن فقههم دقيق تلاحظ به كل النصوص ويبنى على فهم ثابت وملكة دقيقة لا تهمل شيئا الا وقد أعطته محله من الاعتبار • ان الفتوى المحررة من أهلها خير من الفتوى التى لم يجتمع فى صاحبهـا ما لا يؤهله لها •

(ب)

وان الذين يحاربون التصوف باطلاق مخطئون :

اننا عندما نقرأ الكتاب والسنة نجد كلاما كثيرا عن القلب والايمان والذوق وأمراض القلوب والنفوس وعن دواء الأمراض ونجد كلاما عن صمم القلب وعماه وعن سلامته ونقواه وعن النفس البشرية عن زكاتها وفجورها وعن أمثال هذه المعانى • فنشأ عن ذلك علم مستقل له علاقة بكل حيثيات هذه القضايا وما ينبثق عنها وكان هذا العلم هو علم التصوف والسلوك فليس من المستغرب أن يوجد هذا العلم بل المستغرب ألا يوجد اذ دأب علماء المسلمين أن يكتبوا فى كل موضوع على حدة • فيضعوا الشىء مع نظيره ومثيله ويشرحوا ويفصلوا ويجيبوا على كل سؤال له علاقة فى هذا الموضوع ومن ثم وجد العلم وتطور وحدث له ما يحدث لكل علم من التصدى له ممن ليس من أهله ومن التأليف فيه ممن يتقنه أو لا يتقنه ومن منحرف فيه ومن مستقيم واذ كان هذا العلم هو العلم الذى له علاقة بالقلوب والأرواح والذوقيات والكشوفات التى تحدث عادة اذا وجدت أسبابها كما سنرى من خلال النصوص واذ أصبح هذا العلم علما على العباد والزهاد فقد أصبح لأهله فى كثير من العصور فى قلوب الناس مكان ومكانة فاندس فيه كثيرون ودس من خلاله كثير وخدع بسببه الكثيرون وهذا واقع مر أحاط بهذا العلم •

* * *

ومن أهم ما حدث فى هذا العلم من خلل أن أهله وكثيرين ممن انتسبوا له تصورا أن هذا العلم يغنى عن غيره ويغنى عن دراسة الكتاب والسنة ومن ثم حدث فى كثير من المراحل أن بعض المنتسبين للتصوف أصبحوا يتحرقون أن يدرسوا العلوم الاسلامية من فقه وتوحيد واستغنوا بقراءة كتبه عن دراسة الكتاب والسنة الا من خلال ما يقرأونه فى بعض كتبه من نصوص وحتى اذا قرأوا فلأن فى القراءة بركة وعلى الدنيا السلام ، هذا مع ملاحظة أن هذا العلم واحد من علوم كثيرة يحتاجها المسلم ، ودراسة هذه العلوم لا تغنى عن دراسة الكتاب والسنة فهذا العلم لا يبحث كل شىء وانما هو مكمل علوم أخرى •

فالصلاة من حيث كون انكارها كفرا يبحث هذا فى كتب العقائد والصلاة من حيث كونها أعمالا وأقوالا يبحث هذا فى كتب الفقه وأما كيفية تحصيل الخشوع فيبحث هذا فى كتب التصوف •

والجهاد من حيث كونه فريضة يكفر جاحدها وفرضيته أمر معلوم من الدين بالضرورة وانكارها كفر يبحث هذا فى كتب العقائد ومن حيث أحكامه وما يترتب على ممارسته من أمور لها أحكام يدرس هذا فى كتب الفقه • والاخلاص الذى هو شرط قبوله عند الله هو وبقية الأعمال يبحث هذا عادة فى كتب التصوف وكل العلوم التى انبثقت عن الكتاب والسنة لا تغنى عن دراسة الكتاب والسنة ليبقى المسلم رابطا الفروع بالأصول فعندما يوجد الصوفى الذى ليس له باع فى دراسة الكتاب والسنة وليس له باع فى دراسة الفقه والتوحيد فانه فى هذه الحالة يضيع ويضيع (١) غيره • ويكون من الناحية العملية ممن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض ، وتكون بالتالى أحكامه قاصرة تشل الحياة البشرية • ومن ثم نجد مرحلة الأفول فى المجتمع الاسلامى كان التصوف فيها أقوى ما يكون •

والذى يهاجم كبار الصوفية من خلال رؤيته لكتبهم فى التصوف وعدم رؤيته بعض الأبحاث فيها يكون ظالما لأنه لم يعرف ما يدخل

---

(١) يضيع ويضيع : الأولى بفتح الياء وكسر الضاد ، والثانية بضم الياء وفتح الضاد مع تسكين الياء وتشديدها •

فى هذا العلم وما لا يدخل فيه • لقد هاجم ناس الامام الغزالى رحمه الله من ناحيتين :

أولا : لأنه لم يضمن كتابه احياء علوم الدين بحثا عن الجهاد •

وثانيا : لأنه عاصر الحروب الصليبية ولم يقاتل •

وكلا الهجومين ظالم • اذ أن بحث الجهاد عادة يكتب فى كتب الفقه والغزالى ألف فى الفقه كثيرا وكتبه فى الفقه ملأى بأبحاث الجهاد وفى كتابه احياء علوم الدين بحث نفيس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفيه كلام عن القتال فى سبيل الله •

والغزالى توفى سنة (٥٠٥ هـ) بينما توجهت أول حملة صليبية من أوروبا حوالى سنة ٤٨٧ هـ ولم تصل الى الأرض المقدسة بل انتهت فى الطريق فما يقال من أنه عاصر الحروب الصليبية غير صحيح على أن المشهور عن الغزالى أنه أراد الالتحاق بأمير المسلمين وبطل الحروب الصليبية فى المغرب يوسف بن تاشفين وفى الطريق اليه بلغه خبر وفاته فرجع •

وانما ذكرنا ما ذكرناه فى هذه الفقرة ليعلم أن الصوفية وأعداءهم على السواء لم يعرفوا محل التصوف وحدوده وبالتالى أخطأ هؤلاء فى الهجوم وجهل أولئك فى العمل ، ووضع الأمور فى مواضعها هو سمة أهل العلم •

❁ ❁ ❁

روى الامام مسلم عن حنظلة بن الربيع الأسيدى قال : « لقينى أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ما تقول ؟ قلت : نكون عند النبى صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين واذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيرا • قال أبو بكر : فوالله انا لنلقى مثل ذلك فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله ، فقال : وما ذاك ؟ قلت : نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيرا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم

الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ، ساعة وساعة ، ساعة وساعة » .

من هذا النص ندرك أن هناك احساسات ايمانية وأن المداومة على الذكر قد ترتقى بصاحبها الى مصافحة الملائكة له أى الى أن يكشف له عن شىء من أمر عالم الغيب وندرك أن مجرد الجلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع الى أعلى المقامات ولقد وجد فعلا فى جيل الصحابة من تسلم عليه الملائكة ويسمع تسليمهم فهذا عمران بن حصين رضى الله عنه يقول فى حديث صحيح أخرجه الشيخان والنسائى : « وقد كان يسلم على حتى اكتويت ثم تركت الكى فعاد » .

كل هذه المعانى معان ورثتها الأمة ومن ثم فلابد أن تظهر آثارها فى الأمة الاسلامية خلال العصور ، وقد كان هذا علما على طبقات الصوفية المخلصين ولا يعنى كون هذا علما عليهم ألا يذوق هذه المعانى غيرهم بل هم أهل التخصص والبحث والتذوق لهذه المعانى ، ومن ثم فليس غريبا أن يوجد العلم الذى يسجل فيه المسلمون خلال تاريخهم ملاحظاتهم وتجاربهم الخاصة فى موضوع السير من الغفلة عن الله الى اليقظة ومن الشرود الى الالتزام ومن مرض النفس والقلب الى صحتهما ولكن المستغرب ألا يوجد .

فاذا وجد العلم ووجد المختصون فيه ووجد الآخذون له فقد قام سوقه كيف وهو علم يحتاجه كل مسلم لأنه علم التحقق بالايمان والاحسان والتقوى والشكر وغير ذلك من مقامات الاسلام واذا كان كذلك فشىء عادى أن تقوم له مدارس وأن يكثر فيه الأخذ والرد وأن توجد أشياء كثيرة ترافق هذا العلم وتعتبر من مكملاته أو لوازمه .

وفى هذا المقام يقال ما يقال فى غيره من العلوم :

الكتاب والسنة فيهما بيان كل شىء ومن ذلك ما له علاقة فى هذا العلم ولكن هل كل انسان أحاط بالكتاب والسنة وعنده قدرة أن يجمع النظير الى النظير وأن يعرف تفصيل المجمل وأن يضع الأمور فى مواضعها وهل الناس متساوون فى الفهم وفى بعد الملحظ وفى عمق الادراك ومن ثم فلا مبرر لمحاربة علم التصوف ولا لانكار وجوده حتى ولا لانكار اسمه فهذه فتاوى ابن تيمية رحمه الله وهو من هو فى موقفه من غلاة

الصوفية ، وفى موقف الصوفية وغيرهم منه صدر مجلدان من فتاواه تحت عنوان « فى التصوف والسلوك » • وأن لابن القيم كتابا فى السلوك فى ثلاثة مجلدات اسمه « مدارج السالكين » •

ان الذين ينفرون المسلم عن دراسة أى علم فى معدنه المحرر يطولون عليه الطريق فكما لا يقال للمسلم تتبع موضوع الناسخ والمنسوخ من كتب التفسير ان أردته وكما لا يقال للمسلم تتبع أسباب النزول من مطولات كتب التفسير مع وجودها فيها بل يقال له اقرأ الكتاب الناسخ والمنسوخ لفلان وأسباب النزول لفلان فهكذا هنا وفى كل علم ، واذا تعذر وجود الكتاب المحرر فعلينا أن نوجد الكتاب المحرر على أننا نقول ان كثيرا من الكتب المحررة فى علم التصوف مغمورة وكثير من الكتب غير المحررة فى هذا العلم مشهورة وانا لله وانا اليه راجعون • وعلى كل فمهمة علماء كل عصر أن يقدموا لجيلهم المحررمن القول فى كل شىء •

* * *

ولا شك أن أمام المحققين فى هذا العلم ركاما من الخطأ والأخذ والرد والاتهامات فقد حدث خـــلال العصور أن وجد التناقض التالى :

فى الأصل يجب أن يحكم الفقيه على الصوفى فيقومه على حكم الله فى الاعتقاد والعمل ويحمله على ذلك وهو معنى ذكرناه من قبل ولكن الذى حدث أن الفقيه ســـلم للصوفى فحدث الشـــذوذ وحدث الانحراف • ان مطابقة قول الصوفى لعمله وكثرة عبادته جعلته محل ثقة العامة • ومخالفة كثير من الفقهاء لأحوال الكمال جعلتهم محل تهمة حتى من قبل أنفسهم فاذا أنكروا لم يقبل انكارهم لعدم تحققهم فسار التصوف فى هذه الحالة بمعزل عن التحرير فكانت الطامة مزدوجة اذ أصبح التصوف فيما آل اليه ، واذ وقف الكثيرون ضده وضد أهله وضد اسمه وكل ما يمت اليه بصلة واعتبروا ذلك فريضة شرعية ولكن الى أى حد أثر هذا ؟

ان نزعة التصوف نزعة أصيلة فى النفس البشرية ، وان اتساع المدارس الصوفية استقطب ملايين الأمة الاسلامية شرقا وغربا وليس الطريق الصحيح أن نعالج الخطأ برفض القضايا العـــادية والفطرية والنزعات الروحية الأصيلة ، ولكن الطريق هو تحرير الخير من دخنه

بلغة الحق الخالص والحق أمضى سلاحا وهو وحده الذى يحسم الخطأ ونحن نرغب فى هذه الرسالة وغيرها أن نضع الأمور فى مواضعها على أمل أن نفتح طريق المستقبل للمسلمين بحيث تنطلق أمورهم كلها من الكتاب والسنة على ضوء الفهم الحق والعمل الحق •

* * *

كنا ذكرنا من قبل أن التصوف ذو شقين : الشق الأول هو الذى له علاقة بالسلوك والسير الى الله بتزكية النفس وتطهيرها والأحوال التى يمر بها السائر والسالك والمقامات التى يتحقق بها فى عملية السير حتى يصل الى الكمال فهذا الشق هو الشق الذى يعتبر العلم الضرورى الذى لابد أن ينشأ ولابد أن يقوم • والشق الثانى هو ما يسمى بالمكاشفات والالهامات التى يراها السالك أو تنصب فى قلبه وهى التى يسميها الصوفية الحقائق أو المعارف وهى التى من أجلها أو من أجل بعضها حدث الصدام المرير بين الصوفية وبين غيرهم واذ حدث الصدام القاسى بحيث يضيع الانسان فى هذا الموضوع بين الأطراف المتنازعة نحب أن نسجل هنا مجموعة نقاط تضع الأمور فى نصابها :

أولا : فى خضم الصراع بين أهل الحق وبين غيرهم من غير المسلمين وبينهم وبين الفرق الضالة لم يكن جو التأليف ليسمح بوفقة هادئة تنصب على التحقق بمقتضيات الايمان • كان الصراع عقليا وبالأسلوب الذى يفرضه الخصم أو يلجأ اليه ، وفى معرض تبيان الخطأ والصواب فى العمل كان الكلام ينصب على عمل الجوارح وحده وفى معرض تبيان وجهات النظر فى كل مسألة عملية غاب عن ميدان التأليف فى الفقهيات ما له علاقة بقضايا القلوب التى عليها مدار قبول الاعتقاد وقبول العمل • ومن ثم انفرد الكلام عن التصوف وهذا بعض عذر الماضين اذ فصلوا بين هذه العلوم بالتأليف •

ثانيا : ان هناك قلبا معصوما وحيدا عنه نتلقى أمر الغيب هذا القلب المعصوم هو قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى اللحظة التى يعتقد فيها أى انسان من غير الأنبياء أن قلبه معصوم فى عملية التلقى المباشر عن الله أو عن عالم الغيب أو يعتقد فيه أن قلبه معصوم فى التلقى المستقل عن الله فان الجميع يكفرونه والأصل الأصيل فى هذا كلام

الصوفية أنفسهم هو قول أبى سليمان الدارانى : « ربما أجد النكتة من كلام القوم فى قلبى فلا أقبلها الا بشاهدى عدل من الكتاب والسنة » • ومن ثم فكل كلمة قالها أى انسان مدعيا أنها من فتح الله عليه ننظر ان وافقت الكتاب والسنة فعلى الرأس والعين وان خالفت وكانت عقيدة الرجل سليمة وكان فى نفسه صالحا واحتملت الكلمة التأويل أولناها بما يتفق مع ما عرف عن الرجل • وان كانت لا تحتمل التأويل وكانت ثابتة عنه حكمنا عليه بما يستحق من خلالها وان كان معروفا بالعلم والاستقامة وتحتمل أن يكون قد تاب عنها مع ملاحظة أن الذى يملك الحكم فى غير الأمور المعلومة من الدين بالضرورة المؤهلون لذلك أما الأمور المعلومة من الدين بالضرورة فهذه يستطيع كل مسلم أن يحكم فيها •

ثالثا : اننا لم نعرف صوفيا وصل الى رتبة الاجتهاد ووصلت لنا آراؤه كاملة حتى الجنيد فانه كان مقلدا على مذهب أبى ثور • وهذا يعنى أن كل فكرة أو كل فعل أو كل اتجاه يطرحه صوفى كائنا من كان فالمرجع للحكم فيه لأئمة العلم الذى له علاقة بذلك فان كان من باب العقائد فالرأى فى الحكم عليه لأئمة علم التوحيد وان كان فى العمليات فالرأى فيه لأئمة الفقه وان كان فى التفسير فالمرجع لأئمة التفسير وان كان فى الحديث فالمرجع فيه لعلماء الحديث ان فى الحكم على درجة الحديث أو فى فهمه ، ويحكم ذلك كله الكتاب والسنة حسب قواعد اللغة وأساليبها • ومن ثم فعندما يطرح أحد من الصوفية طرحا خاطئا فى أى قضية فان موقف المسلمين كلهم الرفض فمن ادعى أن الرفض علم فى مثل هذا على نوع من الناس فقد أخطأ ولم يضع الأمور مواضعها •

واذا تساءل متسائل بعد ذلك ماذا أبقيتم للصوفية بعد هذه القيود ؟ نقـــول : أبقينا لهم التطبيق الذى امتاز به أئمتهم من غيرهم وأبقينا لهم التذوق الذى هو أثر التطبيق وأبقينا لهم أن يحدثونا عن تجاربهم وأبقينا لهم أن يفيضوا حيث يختصر غيرهم فى الأمور الذوقية وأبقينا لهم اجتهاداتهم فى أمور السير والسلوك اذا وافقهم عليها العلماء والفقهاء وأبقينا لهم اعترافنا لهم باختصـــاصهم فى هذا النوع من العلوم المحررة على أصـــل الشريعة أما من يتصور غير ذلك فيهم فقد ضل ســـواء السبيل فلســـنا بحاجة الى شىء زائد على الكتاب والسنة فى أى شىء لأن الله أتم دينه فمن قدم لنا فى باب العقائد معنى زائدا أو مناقضا

أو مرفوضا أو مردودا من قبل بديهيات الاسلام فكلامه مردود عليه ومن ثم فان التصوف لا ينبغى أن يؤخذ الا من العلماء ولا ينبغى أن يأخذه المسلم الا بعد العلم ، ومن ثم كانت وصية الكبار منهم لتلامذتهم « كن محدثا صوفيا ولا تكن صوفيا محدثا » • وذلك لأن الصوفى اذا أصبح محدثا بعد تصوفه جعل الحديث تابعا ، والكتاب والسنة يجب أن يكونا متبوعين ومن ثم كانت الكلمة المشهورة : « من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق » لأن فقها بلا عمل وتحقق وذوق لا يخرج الانسان من طور الى طور •

رابعا : ان اجلال هدى الأنبياء يجب أن يكون أكبر عندنا من اجلال هدى الأولياء ومن ثم فيجب أن نبقى دائما متذكرين قوله تعالى : **« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم »**(١) • وعلى هذا فيجب ألا نتردد فى رد كل ما خالف هدى الأنبياء ان فى التربية أو فى التعليم أو فى التلقين أو فى السير أو فى السلوك وفى الأصل فان احترامنا للشيوخ بسبب اتباعهم لا بسبب ابتداعهم ولا بسبب وحى أنزله الله علينا يأمرنا باتباعهم فمتى وجدنا هديا يخالف هدى الأنبياء فى أى شىء وتحققنا من المخالفة فعلينا أن نرفض وأن نقوم قال تعالى : لرسوله : **« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون »**(٢) • ومن ثم يجب أن تكون عند الذين يملكون أهلية التحرير أن يحرروا كل كتاب نسب الى أى انسان فى التصوف فيثبتوا ما يجوز اثباته ويردوا على ما ينبغى الرد عليه مع الأدب ذاكرين احتمال الدس على المؤلف ومحتملين غير ذلك مع ملاحظة أن الذين ينبغى أن يقوموا بهذه المهمة يجب أن يكونوا ممن اجتمع لهم علم محيط وذوق صحيح هو أثر عن سير الى الله مستقيم ويبدأون بالأهم والأكثر انتشارا • والطريق الأخصر أن تعمم العلوم الاسلامية بحيث يصبح المسلم عارفا مزالق الطريق ومنعرجاته والتواءاته بحيث يصبح حسه سليما ووعيه عاليا فيميز مباشرة بين الحق والباطل فى أى أمر سمعه أو قرأه •

خامسا : ان موضوع السير الى الله عز وجل اقتضى نشأة علم التصوف واقتضى نشأة مؤسسات ومدارس لهذا العلم واقتضى تحديد

---

(١) التوبة : ٣١ •　　(٢) الجاثية : ١٨ •

معانيه واصطلاحاته وكل ذلك يشترك فيه هذا العلم مع غيره ولكن هذا العلم يفترق عن غيره بأنه علم عملى وشعورى فلا تحصل للانسان معرفة به الا بعمل والعمل ينتج شعورا وقد حدث أن سجل كبار السالكين مشاعرهم فى كل مرحلة من مراحل السير كما سجلوا ما وقع فى قلوبهم أثناء هذا السير والناس بطبيعتهم مختلفون استعدادا ومختلفون أحوالا ولكل خلقه وحاله الذى يغلب عليه وقد سجل هذا كله فى كتب التصوف والكتاب والسنة حاكمان على هذا كله والرسول صلى الله عليه وسلم هو وحده القدوة وعلينا أن نحتفظ ونحن نقرأ سير الرجال بحقيقة أن القدوة وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موضوع غاب عن الكثيرين حتى أصبحت دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تأتى بالدرجة الثانية وهى نقطة علينا أن نرجع بها الى أصولها الصحيحة .

سادسا ان أمراض النفس البشرية كثيرة ومعالجتها صعبة وبعض هذه الأمراض معقدة وقد يقتضى ذلك أن يعالج بعض الشيوخ الأمراض بمعالجات معينة لاقتلاع جذور المرض وهو معنى أصله موجود فى التربية النبوية ، ولكن تسجيل معالجات الشيوخ لبعض الأمراض عندما يؤخذ على أنه علاج مفروض لكل نفس ولكل مرض يكون ذلك خطأ كبيرا ، فاذا ما قرأ القارىء العـادى كتب الصوفية فانه معرض اما للوقوع فى الانكار واما للقبول الخاطى والتطبيق السيء فيكون ذلك كارثة ، فاذا أضيف الى ذلك أن يعتبر الشعور الذى سجله انسان ما فى لحظة ما هو العقيدة التى هى هادية الشعور والتى يجب أن تحمل عليها قضايا الشعور فعندئذ تصبح الأخطاء تتوالى بشكل مرهق ومن ثم حرصت فى رسالتى « **تربيتنا الروحية** » أن أبين أركان السير الى الله عز وجل بما يسع الناس جميعا ويحتاجه الناس جميعا كما أبين فيه المقامات التى يجب أن يتحقق بها كل انسان كأثر من آثار هذا السير وصلة هذا فى العقيدة وتبيان جوانب الخطأ والصواب فى هذا كله بحيث لو قرأ الانسان كتب التصوف فانه يستطيع أن يضع الأمور فى مواضعها ليكون للانكار والقبول ضوابطه الدقيقة . وفى سلسلتنا « **الأساس فى المنهج** » يجد الانسان تفصيلات دقيقة لكل هذا ولكنها مبعثرة فى السلسلة بحسـب ورود مناسباتها .

* * *

لقد جربت كثيرا ورأيت كثيرا ونادرا ما وجدت كمالا فى النفس أو احسانا فى السلوك أو قدرة على التعامل الا اذا وجدت نزعة عبادية عند الانسان أو تربية صوفية صافية • وذلك لأن مفاتيح النفس البشرية انما هى فى هذه التربية وأصولها وقواعدها لأن الصوفية ورثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تربية النفس وتزكيتها وتخصصوا لذلك وتفرغوا له وتامت لهم فيه أسواق من التجارب المثمرة فى كل عصر فما لم يأخذ الانسان عن المستقيمين منهم تبقى نفسه بعيدة عن الحال النبوية الا اذا كان له علم وعمل وصحبة للصالحين •

ان الصوفية المستقيمين هم الذين ملكوا العلم الذى تتهذب به النفس البشرية ان فى علاقتها مع الله عز وجل أو فيما سوى ذلك من القدرة على التعامل مع بعضهم ومع الناس لقد درجت الحركات الماسونية على أن تسمى الانسان الذى لم ينتسب الى المحافل الماسونية حجرا غشيما أى حجرا غير منحوت أى لا يملك القدرة على أن يأخذ محله المناسب فى بناء المجتمع والذى نقوله : ان الماسونية يمكن أن تنحت الحجارة ولكن تبقى الحجارة حجارة فى قسوتها قال تعالى : « **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة** »(١) ولكن التصوف والبيئات الصوفية هى القادرة باذن الله على ايجاد الانسان فى كمالاته كلها على أن يتحرر التصوف من سلبياته فتلك نقطة بداية فى وجود الانسان الذى يقوم بفرائض العبودية لله وفى وجود الانسان الذى يقدم أعظم العطاء فى باب التعامل مع الآخرين فيقوم بذلك مجتمع كله أدب وكله تراحم وكله عطف وكله مودة وكله ايثار وكله لطف •

ولئن خلط الكثير من الصوفية الخير بكثير من الدخن فأثر ذلك على الهيكل العام للبناء فان مهمتنا فى هذا العصر أن نوجد التربية الصوفية الكاملة الصافية ضمن بيئات صوفية صافية على أن يأخذ التصوف محله فى مجموعة العلوم الاسلامية ولا يكون أداة لكسل ولا هربا من جهاد •

ومن تأمل التاريخ العملى للمسلمين فى العصور المتأخرة يجد أن أقوى الحركات الاسلامية وأصفاها وأكثرها انضباطا وتضحية كانت

---

(١) البقرة : ٧٤ •

صوفية • ان حركة الشيخ الفاروقى السرهندى أعادت الى الهند اسلامها وقدمت للأمة الاسلامية « عالم كير » رحمه الله • وان الصراع ضد الاستعمار الروسى قاده الشيخ شامل النقشبندى • وان الصراع المسلح ضد أتاتورك قاده الشيخ سعيد الكردى النقشبندى • وان الصراع ضد ايطاليا فى ليبيا قاده السنوسيون والصراع ضد بريطانيا فى السودان قاده المهديون وفى كل هذه الحركات نجد العلم والعبادة ونجد الجهاد والكسب •

ثم ان حركة الاخوان المسلمين نفسها أنشأها صوفى وأخذت حقيقة التصوف دون سلبياته •

(د)

وان الذين يحاربون دراسة علم أصول الدين أو ما يسمى بعلم الكلام أو ما يسمى بعلم العقائد الاسلامية مخطئون • انه ما من فرقة ضالة من الفرق التى انشقت عن جسم الأمة الاسلامية الا وعندها فكرة أو شبهة اختلط ليلها بنهارها واختلط الحق فيها بالباطل وما من ضلال عليه مسلم الا وسببه لمعة حق حمل عليها باطل والهدى أن نضع الأمور فى مواضعها وأن نعرف الحق حيثما كان وأن لا يحملنا تعصب لحق على تجرع باطل وألا يجعلنا الباطل ننفى بعض الحق أو ننكره على أى مستوى من المستويات وما يقال هنا فى اختلافات المسلمين مع بعضهم يقال كذلك فى خلاف المسلمين مع غيرهم :

ان غلاة الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة وأمثالهم انطلقوا من بديهية ملكت عليهم تفكيرهم ثم انحرفوا فى تطبيقاتها حتى ركبوا متن الضلال •

انطلق غلاة الباطنيين من حب أهل البيت وهى من بديهيات الاسلام ثم غلوا فوقعوا فى التعصب ضد كل ما هو سىء ثم غلوا فأولوا ثم غلوا فأعطوا أئمتهم ما لا يعطاه بشر ثم وثم •• والباطل من طبيعته ألا يجتمع عليه أهله فافترقوا وافترقوا على مذاهب وأهواء شتى • وانطلق الخوارج من فكرة أن الحاكمية لله وهى من بديهيات الاسلام ثم لم يفهموا ولم يعرفوا الكيفية المسنونة لتطبيقات هذه الحاكمية التى لا يمكن أن تعرف تطبيقاتها الا من خلال السنة فساروا من واد الى واد قلم يزالوا

يكفرون المسلمين ويغلون فى التطبيق ومن طبيعة الباطل أن يفرق أهله فتفرقوا وتفرقوا على مذاهب وأهواء شتى .

وانطلق المرجئة من فكرة عدم الخوض فى ما وقع بين الصحابة من قتال وترك هذا الأمر لله احتراما لجموع الجيل الذى رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أدب عظيم ثم وصلوا الى أن أصبحوا لا يميزون بين حق وباطل ، ولا بين أهل الحق وأهل الباطل وكأن الله عز وجل لم ينزل قرآنا حد فيه حدودا وميز فيه بين أهل الجحيم وأهل النعيم ثم افترقوا وافترقوا ثم تلاشوا .

وانطلق المعتزلة من الدفاع عن الذات الالهية أن يكون لها شبيه أو أن تتهم بالظلم وتعالى الله أن يكون له شبيه أو أن يكون ظالما ثم غلوا فعطلوا صفات الله التى حدثنا عنها الله عز وجل فعطلوا مدلولاتها معطلين مئات النصوص القرآنية والحديثية ثم نفوا أن يكون كل شىء بارادة الله وقدرته معطلين آيات الله التى تصفه بذلك والباطل من طبيعته ألا يجتمع عليه أهله فافترقوا وافترقوا ثم انحسروا وانحسروا .

وهكذا نشأت فرق اسلامية كثيرة وهذه الفرق لم تنطلق من العدم ولم توجد بلا نقطة ارتكاز ترتكز عليها ومن ثم فنحن لسنا بالخيار أن نعرف هذه الفرق وأن نعرف اتجاهاتها الخاطئة ونرد عليها لأن اهمالنا لهذا سيؤدى الى أن تعود المسألة جذعة ومن ثم فان ايجاد مناعة مستمرة فى المجتمع الاسلامى تقتضى دراسة علم العقائد الاسلامية واذا قارنا بين الآثار السلبية والآثار الايجابية لهذه الدراسات نجد أن الايجابيات أكثر بكثير من السلبيات لأن حفظ رأس المال مقدم على محاولة الربح فكيف اذا كان اهمال هذه الدراسة سيؤدى الى اضاعة رأس المال كله ، ان معرفة تحقيق أهل السنة والجماعة فى كل قضية خلافية مع التعرف على الأدلة الكاملة هو ضمان كبير لعدم الوقوع فى خطأ وقع فيه الماضون وحتى دراسة الكتاب والسنة ينبغى أن يلاحظ فيها هذا . ان اهمالنا التعرض لذلك وتبيان وجهة الحق فيه يؤدى الى فراغ يمكن أن يملأه الخطأ .

* * *

روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو

دخلوا جحر ضب لتبعتوهم • فقلنا يا رسول الله •• اليهود والنصارى ؟ فقـــال : فمن ؟ » •

وقد انقسم اليهود أنفسهم ووجدت عندهم فرق كثيرة وقد انقسم النصارى على أنفسهم ووجدت عندهم فرق كثيرة • وقص الله عز وجل علينا فى القرآن قضايا الانحراف الرئيسية عند اليهود والنصارى وهذه الأمة سارت سيرا طويلا ووقعت فيما وقع فيه غيرها وحدث لها ما حدث لغيرها •

فلأن تعرف الأمة الخطأ الذى وقع من وقع فيه فى تاريخنا وتدرك العبرة فى ذلك فان فى ذلك مصلحة محققة ولأن تعرف الانحراف والمنحرفين وتعطيهم ما يستحقون من أوصاف فذلك أجدى وأحكم • ان أضـــواء تسلط لتبرز جانبا مظلما على أنه منير فاذا حدث الغلط فى التقييم فان ذلك يكون بداية انسلاخ عن الشعور « بالأنا الجماعى » للمسلم فى ارتباطه بالأمة الاسلامية ولاشك أن هذا موضوع واسع المدى ويحتاج الى مطولات •

❊ ❊ ❊

والأمة الاسلامية على أبواب قرن جديد وانطلاقة جديدة باذن الله عز وجل ولأن يكون الانطلاق من نقطة صحيحة فذلك هو الأجود والانطلاق من نقطة صحيحة يقتضى معرفة المسارات الخاطئة التى حدثت خـــلال التاريخ لتجنبها ولكسب المناعة بعد الانطلاقة من الوقوع فيها •

لقد حدثت مسارات خاطئة خـــلال تاريخنا :

أولا : فى باب التصورات العامة عن موضوع الايمان وما يدخل فيه وما يخرج عنه •

ثانيا : فى باب معرفة الله وصفاته وأسمائه •

ثالثـــا : فى باب الخـــلافة وموضوع الحكم الاسلامى •

رابعا : فى باب الموقف من الصحابة وخلافاتهم واختلافاتهم •

خامسا : فى موضوع الظاهر والباطن فى النصوص وقضية التأويل •

سادسا : فى جوانب من العقيدة كعقيدة القضاء والقدر •

وهذه نماذج على أشياء حدثت فيها مسارات خاطئة ولابد للمسلم المعاصر أن يكون على وضوح فيها وفى غيرها من هذه المسارات ليكون الانطلاق صحيحا ومستقيما ومن ثم كانت دراسة العقيدة أمرا لازما •

* * *

وفى خاتمة هذه الجولة أحب أن أذكر بأمور :

(أ) يحـاول المستشرقون أن يعمقوا فكرة : وهى أن المدارس الاجتهادية انما جاءت لتلافى القصور فى النصوص القرآنية والحديثية • بل يذهب بعضهم الى أن الاجماع وغيره قد اخترعه العلمـاء لسد القصور فى النصوص •

مثل هذه الشبهة تستهوى الكثيرين ويرددها الكثيرون ومجرد قبولها كفر ، وكيف العلاج والرد ان لم يكن باثبات أن القياس والاجماع والمصادر الفرعية للأحكام كلها قد دلت عليها النصوص لتقوم بدورها باستخراج الأحكام التى لم ينص عليها صراحة فههنا نجد أن دراسة علم أصول الفقه ثم دراسة الفقه بأدلته هى العلاج الحاسم فى رد مثل هذه الشبه •

(ب) يحاول المستشرقون والمستغربون من أبناء المسلمين أن يخلعوا على المعتزلة ألقابا كثيرة وأن يعطوهم فى المجتمع الاسلامى دورا لا يستحقونه فمثلا يعطونهم أحيانا لقب أصحاب المدرسة الفقهية الحرة فى المجتمع الاسلامى وأحيانا يصورونهم كرواد أحرار فى قلب مجتمع ضيق الفكر وأحيانا يصورونهم وكأنهم هم الذين أطلقوا باب الاجتهاد من عقاله . وكل ذلك جزء من خطة كاملة تستهدف احياء فكر الفرق الاسلامية الضعيفة أو الميتة . والأمر كله ليس كذلك • فالمعتزلة كانوا أول من اغتال حرية الفكر بحد السيف فهم الذين سنوا قتل مخالفيهم وتعذيبهم ثم المعتزلة كانوا مقلدين فى باب الفقه فكلهم أو جلهم على مذهب أبى حنيفة فى الفقه . والمعتزلة فى مجموع ما طرحوه من أفكار ما خرجوا عن كونهم فهموا النصوص فهما خاطئا لكنهم لم ينطلقوا من تركها أو اهمالهـا أصـلا فما يريد الآخرون أن يبنوه على مثل هذه المقدمات غير صحيح وليس أمامنا من علاج نعالج به أمثال هذه المقدمات والنتائج التى يراد لها أن تعيش على أرضنا الا من خلال العلم بالفقهين

الكبير والأكبر مع الفهم الصحيح للنصوص مع معرفة حقائق التاريخ الاسلامى •

وهكذا نجد أن دراسة الفقهين الكبير والأكبر ضرورة حتمية لا بديل عنها ليس من ناحية واحدة ولكن من نواح شتى •

(ج) من الوقائع الثابتة أن بعض الحكومات الالحادية عممت على سفاراتها فى العالم العربى بيانا تذكر فيه أن بعض الاتجاهات الرجعية قد نمت فى أعقاب نكبة حزيران(*) ولذلك فان على هذه السفارات أن تشجع التيار الصوفى لتقطع على هذه الاتجاهات الطريق •

وواضح ما هو المراد من هذا التعميم ، ان الدوائر الكافرة تريد أن تحول بين الاسلام الكامل وبين الانتصار • وتعرف أن الطرق الى ذلك متعددة ، منها أن توجد فى المجتمع الاسلامى حلقات منفصلة عن بعضها كل منها يقطع الطريق على المسلم من أن يشارك فى العمل الاسلامى الشامل لاقامة الاسلام ، انهم لا يشجعون التصوف حبا به ولكن لأن أمرا عندهم هو أهون من أمر •

فهل الحل الا أن نعرف الناس بماهية التصوف الصحيح ومحل التصوف فى دين الله ليصبح التصـــوف زاد المجـــاهد الروحى بدلا من أن يكون أداة الهرب من الجهاد ؟

(د) قلنا ان فهوم أئمة الاجتهاد بمجموعها كانت بمثابة اعطاء النصوص أقصى مدى وأن ذلك كان على ضوء قواعد صالحة ومنضبطة ولم يكن الاقتصار على مذهب واحد هو دأب جيل التابعين حتى ان الامام مالكـــا رفض أن يحمل الناس على مذهبه عندما عرض عليه ذلك من قبل بعض خلفاء العباسيين ، وما ذلك الا لأن أحدا من الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينه لم يحط بالشريعة الاحاطة التى تجعل كل كلام غير كلامه ملغى •

ثم ان احتياجـــات الزمان والمكان وتطور الأحـــوال والأوضاع واكتشاف الجديد واحتمال الغفلة عن أمور تقتضيها الفتوى للحادث الطارىء واحتمال الجمود على صيغة كانت لزمان سابق كل ذلك يقتضى

(*) يونية سنة ١٩٦٧ •

الا يحصر الفكر الاسلامى والتشريع الاسلامى فى مذهب واحد من مذاهب أئمة الاجتهاد ولذلك لم يكن أحد من العلمـاء خلال العصور يتورع أن يحيل الناس على غير مذهبه اذا وجد الضرورة أو الحرج •

فاذا كان هذا مما ينبغى أن يكون فى كل عصر فانه فى عصرنا أكثر ضرورة •

فالمسلم يواجه ضغوطا والمسلمون بمجموعهم يواجهون ضغوطا وقد أصبح العالم مفتوحا على بعضه ولكل منطقة ظروفها ولكل قطر تعامله وقد يحتاج مسلم أو قطر الى أن يتعامل مع دول شتى وأصناف شتى وهذا كله يظهر ايجابيات اتجاه فقهى أو الضرورة اليه بما لم تظهره قرون سابقة •

ثم ان ما يمكن أن يواجه الحركة الاسلامية سواء كان لها سلطان أو لم يكن متعدد الجوانب متعدد الملاحظ وشىء يسع السير وشىء لا يسعه وأمر يسع الناس وأمر لايسعهم والاجتهاد المنضبط والبناء على أقوال المجتهدين كل المجتهدين هو الذى يفرض نفسه بما لا يقبل جدلا •

كل ذلك يقال ومع ذلك نقول :

انه لابد أن يوجد المتخصصون القادرون على الفتوى فى كل مذهب معتمد ولابد للمسلم أن يكون فقيها فى مذهب وعلى مذهب •

وأخيرا ••• وفى خاتمة هذه الجولة نقول :

ان بعضهم يقول : ان الفقه الاسلامى لا ينشأ فى فراغ ثم يبنى بعضهم على مثل هذا أنه لا تجوز دراسة الفقه ونقول :

ترى أى باب من أبواب الفقه لا يحتاج المسلم الى دراسته ؟ فقه الطهارة أو فقه الصلاة أو فقه الزكاة أو فقه الصوم أو فقه الحج ؟ ان المسلم بحاجة الى أن يكون فقيها فى مثل هذا لأنه لابد من الطهارة ومن الصلاة ومن الزكاة ومن الحج •• اذن أى فقه هو الذى لا يحتاج اليه المسلم ؟ فقه الفرائض والوصايا وكل منا وارث أو موروث ؟

فقه النكاح والطلاق ؟ وكل منا يحتاج الى أن يتزوج ويمكن أن يقع فى مشكلة ؟ فقه البيوع والمعاملات ؟ وكل منا يحتاج الى أن يكسب

قوته عن طريق حلال وأن يعرف حدود تصرفاته . أى فقه اذن هو الذى لا يحتاج اليه المسلم ؟

ان الفقه الاسلامى يوجد حيث وجد المسلم فحيثما وجد المسلم فهو يحتاج الى أن يعرف حكم الله فيما يلابسه أو يخالطه ان الفقه الاسلامى ينمو فى الأوضاع الاسلامية العادية وفى الأوضاع الاستثنائية فحيثما وجد مسلمون ينبغى التفقه سواء وجدوا فى مجتمع جاهلى أو مجتمع اسلامى .

ان هناك نوعا من الفقه لا ينمو وهو الفقه الذى تحتاجه الدولة الاسلامية فى أوضاعها العادية . هذا النوع من الفقه لا ينمو حيث غابت هذه الدولة ولكن حتى فى حالة غيابها فالمسلم يحتاج الى أن يعرف حكم الله فى الأمور وهذا يقتضيه أن يتفقه ويقتضى من الفقهاء أن يفتوا .

ان المفكرين الاسلاميين اذ يلحظون نقطة خطأ فى السير فعلينا أن ندرك بدقة ما هو جانب الخطأ الذى يعنونه أما أن نحمل كلامهم على ما يلغى البديهيات الأولى فهو خطأ منا أما اذا أرادوا هم أن يلغوا البديهيات فانهم يكونون مخطئين ونحن لا نعطى أحدا العصمة بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام .

* * *

واذا كنا بحاجة الى دراسة الفقه بأبوابه كلها ليكون واضحا لنا ما ينبغى فعله على ضوء العلم فيما يصادفنا ، واذا كنا بحاجة لدراسة الفقه من أجل أن نعرف حكم الله فيما نصادفه فنحن بحاجة الى دراسة العقائد الاسلامية لنعرف الصواب فيها ونتجنب الخطأ . ترى ألا نحتاج الى أن نعرف ماذا يدخل فى كل ركن من أركان الايمان من معان ؟ ترى ألا نحتاج الى أن نعرف صفات الله وأسماءه وأفعاله ؟ ترى ألسنا بحاجة الى دراسة قضايا الالهيات والنبويات والسمعيات ؟ وهذه مباحث علم العقائد الرئيسية . ترى ألسنا بحاجة الى أن نعرف الحق فى القضايا التى افترقت بها الأمة ؟ ترى ألسنا بحاجة الى أن نعرف سر ضلال الخوارج وهى فرقة تحدثت عنها النصوص وسر ضلال نفاة القدر وهى فرقة تحدثت عنها النصوص ؟ ترى ألا نحتاج الى معرفة القول الحق فى أمهات الأمور التى اشتهرت وانتشرت وافتتن فيها الناس ؟

وهل كتب العقائد تبحث الا فى مثل هذا ؟

صحيح أن هناك أبحاثا كثيرة توسع الباحثون فيها ولكن ليس هذا مأخذا بل هذا يقتضيه العلم . ان مقتضى العلم أن يعطى التحقيق حقه فى كل قضية واذا كان هذا لا يحتاجه أفراد الأمة فانه الشيء الذى يحتاجه أهل الاختصاص وهل يسئل أهل الاختصاص لماذا توسعوا فى أمر ما ؟ اننا لا نسألهم بل نعتبرهم ملومين لو لم يفعلوا فكيف نلومهم اذا فعلوا ؟ واذا كنا بحاجة الى دراسة فقه وعقائد أو لسنا بحاجة الى التحقق القلبى . واتقان السير القلبى والروحى الى الله عز وجل وهل التصوف الصافى الا هذا ؟

وعلى كل حال :

اننا ما كتبنا الذى كتبناه لندخل معركة كلامية أو جدلية مع أحد ، اننا لا نرغب بهذا وليس هذا من طبيعتنا ولكنا أحببنا أن نذكر المسلمين بضرورة علوم ، ونحذرهم مما علق بها من دخن فان أصبنا فلله الحمد ، وان أخطأنا فاننا نستغفر الله ونرجو من كل من يعثر على الخطأ أن يدلنا عليه ، ونحن لن نخجل من الاعتراف به والاعلان عنه . أما الذين تدفعهم دوافع نفسية غير مخلصة لله نحو رد أو نقض فى غير محله فهؤلاء بيننا وبينهم الله وهو حسبنا ونعم الوكيل .

التلخيص

وأحب فى ختام هذه الجولات أن ألخص ما أحلم فيه لاخوانى المسلمين فى باب الفقهين الكبير والأكبر :

أولا : أن يوجد التأليف الحديث المناسب فى أصول الفقه وفى المنطق مكتوبا بأيد اسلامية وعقلية اسلامية • وفى الفقه وفى التوحيد وفى التصوف أن يكون تأليفا ترتبط فيه الأصول بالفروع وأنا أعرف كثيرا من الدراسات السائرة فى هذا الطريق منها الموجود ، ومنها الذى يعمل فيه أهله وجزى الله الجميع خيرا ، وسواء وجد هذا النوع من المؤلفات أو لم يوجد فاننى أطالب نفسى واخوانى المسلمين بأن يجهدوا فى محاولة التفقه فى هذين الفقهين وفى أصول ذلك والكتب المؤلفة فى ذلك كثيرة وأهل الاختصاص موجودون •

وماذا على الواحد منا لو جاء الى عالم بقضية فسأله عنها ولو كان يختلف معه فى جزئيات من الأمر على أنى أحذر من العقلية الخاطئة أن تجرنا الى خطأ ، وأطالب نفسى واخوانى بأدب طالب العلم مع أهل العلم •

ثانيا : أن يوجد العلماء المختصون فى هذه العلوم وأن يكونوا من أبناء الحركة الاسلامية نفسها حتى لا يقع صدام بين التصورات والمفاهيم •

ثالثا : أن يبذل بعض طلبة العلم جهدا للنبوغ فى فقه مذهب من المذاهب وفى اتقان أصوله ومعرفة أدلة ذلك ليكونوا أئمة فيه وليكونوا قادرين على الفتوى المكافئة لروح العصر على ضوء أصول هذا المذهب وفروعه وأن تتوسع دائرة هؤلاء المختصين لتشمل أصول المذاهب الفقهية المعتبرة ليكون ذلك كمقدمة لاغناء العصر بالفتاوى المناسبة له ، اننى أحلم بفقه اسلامى معاصر على ضوء مذاهب الأئمة •

رابعا : واننى أدعو المسلمين جميعا ألا يضيقوا ذرعا بتحقيق أهل التحقيق . كما أدعو أهل التحقيق الى أن تكون آفاقهم واسعة فلا يشتدون فى النكير على من خالفهم فى الرأى اذا كان لاتجاهه سند من أقوال الأئمة وفتاواهم .

خامسا : وأدعو مع هذا كله الى اتقان فقه الدعوة واتقان فقه التربية والى اعطاء المعركة حقها والى ادراك طبيعة العصر والى ادراك احتياجات المسلمين الحقيقية وأدعو الى بذل جهد متواصل للارتقاء بالمسلم الى سقفه الأعلى فى كل شىء .. والحمد لله رب العالمين ..

* * *

ولكن ..

هل هذه هى معركتنا ؟ وأقـول : هذه جزء من معركتنا الكبرى بل هى واجب يقتضيه النجاح فى معركتنا ولكن معركتنا أوسع من ذلك .

ان معركتنا ذات أبعاد كثيرة وبداية النجاح فى هذه المعركة هو الوضوح الفكرى والانتصار الفكرى ..

والوضوح الفكرى أبعد من أن يكون درسا للفقهين الكبير والأكبر وأصولهما والانتصار الفكرى أبعد من أن يكون مناقشة فى قضية جزئية أو كلية منفردتين .

ان جزءا من معركتنا الفكرية أن نفهم نصوص الكتاب والسنة فهما صحيحا ملاحظين ما ذكرناه من قبل من قضايا صلة الحكم العقلى والشرعى والعـادى ببعضها وملاحظين القواعد الأصولية فى فهم هذه النصوص وحملها على بعضها وهى مهمة شاقة جـدا ولكن لابد منها لانطلاقة المسلمين المعاصرة .

* * *

انه من المسلم عند علمـاء الحديث أن مما يضعف من قوة الحديث أن يخالف راويه ولو كان ثقة من هو أوثق منه فاذا تعارض حديث رواه ثقات مع نص متواتر فما الحكم ؟ ان كثيرين ممن يقررون القضية الأولى يقيمون الدنيا ويقعدونها اذا تردد امام مجتهد فى الأخذ بحديث بسبب رؤيته أن هذا الحديث يخالف المتواتر ، فالادراك الصحيح للنصوص والفهم الصحيح لها ووضع كل نص فى محله وتطبيق القواعد الأصولية فى الفهم شىء لابد منه كنقطة انطلاق اسلامى فى عصرنا لأن كل انطلاق غير هذا الانطلاق معرض لعقبات كثيرة بعضها شبه معاصرة وبعضها مصادمات لا نهاية لها فى المواقف والآراء ، وبعضها تنشأ عن ابقاء المسلم فى حيرة وهو يمر ببعض النصوص وبعضها ينشأ عن تعريض المسلم للوسوسة بسبب فهم خاطىء للنصوص وكل ذلك وأمثاله لا يقطع الطريق عليه الا فهم شامل وصحيح للنصوص وادراك للعلوم التى نشأت عن النصوص .

انه كثيرا ما يحدث أن يمر المسلم بنص فيتبادر الى ذهنه معنى لا يكون هو المراد فاذا لم تحدد الفهوم الصحيحة للنصوص فسيبقى مجال للخطأ كثير ، وسيبقى مجال للوسوسة وللشكوك وللتشكيك كبير ويكفى أن نقرأ حادثة أبيس أبى كعب التى يقول فيها : « فوقع فى نفسى من التكذيب ولا اذ كنت فى الجاهلية » لندرك ضرورة العلم الصحيح فى المسائل كلها حتى لا يتعرض المسلم فضلا عن غيره لهزة ما .

ان هذا جزء من قضية الوضوح الفكرى ، ولكن الوضوح الفكرى يقتضى ما هو أوسع من ذلك وان الوضوح الفكرى فى كل الأمور هو بداية البدايات فى العمل الاسلامى الناضج .

ولكن الوضوح الفكرى شىء والانتصار الفكرى شىء آخر .

فأن تكون واضحة لديك الأشياء على حقيقتها لا يعنى أنك انتصرت على خصمك فى شأنها ، ان شرط الانتصار أن يكون الحق وحججه واضحين لديك ولكن الانتصار يكون عندما تدحض حجج خصمك وتبطلها وتفقده القدرة على التأثير بواسطتها وهذه مرحلة تالية للوضوح وهذا وهذا هما مقدمة الانتصار السياسى والعسكرى فى بلادنا وعلى امتداد هذا العالم .

وهذا وهذا يقتضيان ثقافة شاملة اسلامية ومعاصرة ويقتضيان قدره على اقامة الحجة وقدرة على استنباط الحلول للمشاكل كلها وقدرة على رسم الطريق نحو حياة أرقى وأكمل وأسلم وأقوم وعلى هذا فان علينا أن نفهم قضية دراسة الفقهين الكبير والأكبر ضمن هذا الاطار العـــام .

يصارع الاسلام فى عصرنا ديانات ودولا تقوم على أفكار محددة ومن ثم فهو يصارع هذه الأفكار وفى عصرنا تجد انسانا غلبت عليه فكرة بعينها فلابد من وضوح فى شأنها وفى عصرنا تجد شبهة بعينها تحول دون انسان ما وقبول هذا الدين وفى عصرنا تجد قضية يتحرك فيها حب المنفعة أو عاطفة الحقد فتجعل الانسان أسير ذلك .

ولابد من الانتصار الفكرى والأخلاقى على هذا كله كجزء من عملية الانتصار الشامل .

اننا لازلنا نصارع الآخرين على قلب المسلم وعقله .

فاذا كان الأمر كذلك فكم بيننا وبين الانتصار الفكرى العالمى ؛ ان هذا الانتصار الفكرى لابد له من أدواته ؛ وبداية ذلك الوضوح الفكرى الشامل ثم تحديد الخلاف بيننا وبين الآخرين واقامة الحجة على الجميع فى كل شىء بطريق ذلك ؛ ثم الانطلاقة العملية الصحيحة من أجل بناء انسان جديد وعلاقات انسانية صالحة ومؤسسات صالحة تحتكم كلها لله ورسوله وتخضع بعد ذلك للشورى على ضوء القواعد الصحيحة للشورى من أدنى مؤسسة محلية الى أعلى مؤسسة عالمية فتكون كلمة الله حاكمة للجميع والشورى حق للجميع فيما هو من أمر الجميع أو هى حق لأهلها أن كان أهلها هم أهل الحق فيها .

والمسألة تحتاج بعد الاستيعاب الى جهد .

وحججنا والحمد لله واضحة ولن يبخل مسلم بجهد فى سبيل الله عز وجل ، ان حججنا فى أن هذا الاسلام هو الذى يحقق العدل والسلام على هذه الأرض وفى أنه هو الذى يغطى احتياجات البشرية تغطية صحيحة . ان هذا كله أوضح من الشمس فى رابعة النهار .

وأن الخلل فى كل نظام آخر وفى كل طرح آخر واضح وضوح النهار لمن عقل . الفكر يدل على ذلك والتجربة تدل على ذلك .

هذه الشيوعية التى نقلت الانسان من تحكم صاحب رأس المال الى تحكم الدولة ، ومن تحكم طبقة الى تحكم طبقة أخرى ، ومن ديكتاتورية لا حجة لها الى ديكتاتورية ظالمة بمبررات ظالمة والتى نقلت الانسان من ولائه الفطرى الى ولاءات وهمية والتى تجعله يعيش على أحلام خيالية بعد مئات السنين خلاصتها أن تلغى الدولة ليأخذ كل انسان حسب حاجته ويبذل من أجل ذلك كل طاقته فى الوقت الذى نرى فيه أن سلطان الدولة فى دولة البروليتاريا يزداد يوما بعد يوم ؛ أهذه الشيوعية التى هذا شأنها والقائمة على التعطيل العقلى والمغالطات العلمية يمكن لو وجد المسلم الحق أن تقف أمام الاسلام الذى يعطى الانسان حاجاته كلها ويوجه طاقاته كلها فى الطريق الصحيح ويعطى العالم نظاما كاملا العدل فى كل شىء .

هذه الرأسمالية التى بلغ ظلمها وعتوها وتحطيمها للشعوب كل مكان هل يمكن أن تثبت أمام الفهم الواضح لرسالة الله عز وجل . ان هذا لا يمكن أن يكون متى وجد الوضوح الفكرى والجهد الصادق اللذان من خلالهما يدرك المسلم حقيقته وحقيقة مهمته فى هذه الحياة فى كونه هو الوصى على هذا العالم بكلمة الله ليقوم العدل ويتحقق السلام الشامل على الأرض من خلال سيطرة كلمة الله بوساطة المسلمين على هذا العالم .

ان لمعركتنا الفكرية هذه أبعادها ، ولقد أحببنا أن نسجل باختصار هذه الأبعاد حتى لا يقع مسلم أسيرا لقضية فكرية جزئية وحتى لا يفهم أحد فهما خاطئا من خلال كلامنا عن الفقهين الكبير والأكبر فى هذه الرسالة فيدرك محل هذا فى مجموع ما نريده لأمتنا الحبيبة أمة الاسلام .

* * *